الفصل الأول

ألف ليلة وليلة وملامح الطغيان والاستبداد فى سيرة الحجاج

obeikandl.com

obeikandl.com

تعريف

عندما يتحدث التاريخ عن الحجاج بن يوسف الثقفي، لابد أن يضع أمامه ذلك التاريخ الدموي الذي مارسه ضد أعداءه وأعداء عبد الملك بن مروان.

لذلك كان وصف التاريخ له على أنه السفاح الذي كان قاسية القلب ومتشبعاً بالدماء ويتلذذ بتعذيب خصومه كان سادياً النزعة.

من هو الحجاج بن يوسف الثقفي؟

الحجاج هو أبو محمد الحجاج بن يوسف بن الحكم بن أبي عقيل بن مسعود بن عامر بن متعب بن مالك بن كعب بن عمرو بن سعد بن عوض بن قسي "ثقيف" وإليه تنسب قبيلته.

من هو والده؟

هو يوسف بن أبي عقيل.

ما هي مهنته؟

كان معلماً للصبيان بالطائف.. وهم إذا قالوا معلم صبيان فإنما يقصدون بهذا الوصف "تحقيراً له" فيكفي في ذلك الزمن أن يكون الرجل من معلمي الصبيان فيعني ذلك يدل على أن هذه الشخصية "ضعيف العقل – مأفون الرأي ساقط الهمة".

ويبالغ البعض فيقول إن ذلك في عرف العرب يوازي الحكم بالأشغال الشاقة في عصرنا هذا؟

لماذا يحتقر العرب المعلم؟

السبب في ذلك في احتقار العرب للمعلم أنهم كانوا يحتقرون الصناعات. والتعليم من جملتها. فلا يشتغل في التعليم إلا المستضعف الذي ليست له عصبيته.

أما الحجاج نفسه قام تتفق المصادر على عمل كان يتولاه الحجاج في صباه. واختلفت الآراء حول عمله، فذكر البعض إنه كان معلم صبيان بالطائف.. بينما قال آخرون إنه كان دباغاً. وقالو إنه كان بائع زبيب "كما جاء في كتاب البيان والتبين للجاحظ".

كان والـد الحجـاج كـما جـاء في معجـم البلـدان مـن كبـار المـلاك في مكـة، وقـد تـزوج "بالفارعـة" سـيدة نسـاء ثقيـف وأكثرهـن جـمالاً.. وعندمـا تـوفي وكان الحجـاج والـياً عـلى المدينـة فنعـاه مـن عـلى المنـبر.

وكانـت أم الحجـاج هـي . الفارعـة بنـت هـمام بـن عـروة بـن مسـعود الثقفـي، وكانـت قبـل زواجهـا بوالـد الحجـاج متزوجـة بالمغـيرة بـن شـعبة.

ويـروي أنهـا طلقـت مـن المغـيرة بـن شـعبة، لأنـه دخـل عليهـا مـرة في السـحر فوجدهـا تتخلـل فبعـث اليهـا بطلاقهـا. فسـألته عـن السـبب فأخبرهـا بأنـه دخـل عليهـا في السـحر فوجدهـا تتخلـل فقـال لهـا:

إن كنت بادرت الغذاء فأنت شرهة.. وأن كنت بت والطعام بين أسنانك .. فأنت قذرة.

فقالـت لـه .. كل ذلـك لم يكـن ولكنـي تخللـت مـن شـظايا السـواك ووالله مـا فرحنـا إذا كنـا ندمنـا إذ بنـا! فنـدم المغـيرة عـلى مـا بـدر منـه وخـرج آسـفاً فلقيـه والـد الحجـاج فقـال لـه : هـل لـك شيء أدعـوك إليـه؟ قـال : وذلـك؟ قـال إني نزلـت السـاعة عـن سـيدة نسـاء ثقيـف فتزوجهـا فإنهـا تنجـب لـك.. فتزوجهـا فولـدت لـه ابنـه الحجاج.

وكانـت الفارعـة أنجبـت مـن المغـيرة بنتـاً.. وإن الحجـاج نـازع عـروة بـن المغـيرة بعـد وفـاة والـده في مـيراث الفتـاة ورفـع القضيـة إلى ابـن زيـاد.

مولد الحجاج

ولـد الحجـاج بقريـة الكوثـر، وهـي قريـة مـن قـري الطائـف ولـد في سـنة إحـدي وأربعـين مـن الهجـرة، وقـد لقـب طـوال حياتـه بالحجـاج وقـد أحـاط المؤرخـون حياتـه الأولي بجـو مـن الأسـاطير يرجعونهـا عـلى إنـه كان محبـاً لسـفك الدمـاء والجـور والنسـاء.

الحجاج بن يوسف الثقفي

ملامح من سيرته

الحجاج بن يوسف الثقفي (٤١ – ٩٥هـ) سياسي أموي وقائد عسكري، ولد في الطائف بالحجاز سنة ٤١ للهجرة، لعب الحجاج دوراً كبيراً في تثبيت أركان الدولة الأموية، سير الفتوح، خطط المدن، وبنى مدينة واسط، ويعد من الشخصيات المثيرة للجدل في التاريخ الإسلامي والعربي، عُرف بـ (المبير) أي المبيد.

حياته المبكرة

ولد أبو محمد الحجاج بن يوسف بن أبي عقيل بن الحكم الثقفي في منازل ثقيف بمدينة الطائف، في عام الجماعة٤١ هـ وكان اسمه كليب ثم أبدله بالحجاج. وأمه الفارعة بنت همام بن عروة بن مسعود الثقفي الصحابي الشهيد. نشأ في الطائف، وتعلم القرآن والحديث والفصاحة، ثم عمل في مطلع شبابه معلم صبيان مع أبيه، يعلم الفتية القرآن والحديث، ويفقههم في الدين، لكنه لم يكن راضياً بعمله هذا، على الرغم من تأثيره الكبير عليه، فقد اشتهر بتعظيمه للقرآن.

كانت الطائف تلك الأيام بين ولاية عبد الله بن الزبير، وبين ولاية الأمويين، لكن أصحاب عبد الله بن الزبير تجبروا على أهل الطائف، فقرر الحجاج الانطلاق إلى الشام، حاضرة الخلافة الأموية المتعثرة، التي تركها مروان بن الحكم نهباً بين المتحاربين.

قد تختلف الأسباب التي دفعت الحجاج إلى اختيار الشام مكاناً ليبدأ طموحه السياسي منه رغم بعد المسافة بينها وبين الطائف، وقرب مكة إليه، لكن يُعتقد أن السبب الأكبر كراهته لولاية عبد الله بن الزبير.

في الشام، التحق بشرطة الإمارة التي كانت تعاني من مشاكل جمة، منها سوء التنظيم، واستخفاف أفراد الشرطة بالنظام، وقلة المجندين. فأبدى حماسة وانضباطاً، وسارع إلى تنبيه أولياء الأمر لكل خطأ أو خلل، وأخذ نفسه بالشدة، فقربه روح بن زنباع قائد الشرطة إليه، ورفع مكانته، ورقاه فوق أصحابه، فأخذهم بالشدة، وعاقبهم لأدنى خلل، فضبطهم، وسير أمورهم بالطاعة المطلقة لأولياء الأمر.

رأى فيه روح بن زنباع العزيمة والقوة الماضية، فقدمه إلى الخليفة عبد الملك بن مروان، وكان داهية مقداماً، جمع الدولة الأموية وحماها من السقوط، فأسسها من جديد.

إذ أن الشرطة كانت في حالة سيئة، وقد استهون جند الإمارة عملهم فتهاونوا، فأهم أمرهم عبد الملك بن مروان، وعندها أشار عليه روح بن زنباع بتعيين الحجاج عليهم، فلما عينه، أسرف في عقوبة المخالفين، وضبط أمور الشرطة، فما عاد منهم تراخ، ولا لهو. إلا جماعة روح بن زنباع، فجاء الحجاج يوماً على رؤوسهم وهم يأكلون، فنهاهم عن ذلك في عملهم، لكنهم لم ينتهوا، ودعوه معهم إلى طعامهم، فأمر بهم، فحبسوا، وأحرقت سرادقهم. فشكاه روح بن زنباع إلى الخليفة، فدعا الحجاج وسأله عما حمله على فعله هذا، فقال إنما أنت من فعل يا أمير المؤمنين، فأنا يدك وسوطك، وأشار عليه بتعويض روح بن زنباع دون كسر أمره.

وكان عبد الملك بن مروان قد قرر تسيير الجيوش لمحاربة الخارجين على الدولة، فضم الحجاج إلى الجيش الذي قاده بنفسه لحرب مصعب بن الزبير.

ولم يكن أهل الشام يخرجون في الجيوش، فطلب الحجاج من الخليفة أن يسلطه عليهم، ففعل. فأعلن الحجاج أن أيما رجل قدر على حمل السلاح ولم يخرج معه، أمهله ثلاثاً، ثم قتله، وأحرق داره، وانتهب ماله، ثم طاف بالبيوت باحثاً عن المتخلفين. وبدأ الحجاج بقتل أحد المعترضين عليه، فأطاع الجميع، وخرجوا معه، بالجبر لا الاختيار.

حرب مكة

في٧٣ هـ قرر عبد الملك بن مروان التخلص من عبد الله بن الزبير، فجهز جيشاً ضخماً لمنازلة ابن الزبير في مكة، وأمر عليه الحجاج بن يوسف، فخرج بجيشه إلى الطائف، وانتظر الخليفة ليزوده بمزيد من الجيوش، فتوالت الجيوش إليه حتى تقوى تماماً، فسار إلى مكة وحاصر ابن الزبير فيها، ونصب المنجنيقات على جبل أبي قبيس وعلى قعيقعان ونواحي مكة كلها، ودامت الحرب أشهراً. وقتل فيها ابن الزبير، فتفرق على ابن الزبير أصحابه، ووقعت فيهم الهزيمة.

أعلن الحجاج الأمان لمن سلم من أصحاب ابن الزبير، وأمنه هو نفسه،

غير أن عبد الله بن الزبير لم يقبل أمان الحجاج، وقاتل رغم تفرق أصحابه عنه طمعاً في أمان الحجاج فقتل. وكان لابن الزبير اثنتان وسبعون سنة، وولايته تنوف عن ثماني سنين، وللحجاج اثنتان وثلاثون سنة.

ولاية الحجاج على الحجاز

بعد أن انتصر الحجاج في حربه على ابن الزبير، أقره عبد الملك بن مروان على ولاية مكة وأهل مكة.وكان وإياهم وأهل المدينة على خلاف كبير، في٧٥ هـ حج عبد الملك بن مروان، وخطب على منبر النبي، فعزل الحجاج عن الحجاز لكثرة الشكايات فيه، وأقره على العراق.

ولاية الحجاج على العراق

دامت ولاية الحجاج على العراق عشرين عاماً، وفيها مات. وكانت العراق عراقين، عراق العرب وعراق العجم، فنزل الحجاج بالكوفة، وكان قد أرسل من أمر الناس بالاجتماع في المسجد، ثم دخل المسجد ملثماً بعمامة حمراء، وأعتلى المنبر فجلس وأصبعه على فمه ناظراً إلى المجتمعين في المسجد فلما ضجوا من سكوته خلع عمامته فجأة وقال خطبته المشهورة التي بدأها بقول:

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني

ومنها أما والله فإني لأحمل الشر بثقله وأحذوه بنعله وأجزيه بمثله، والله يا أهل العراق إني لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها، وإني لصاحبها، والله لكأني أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى. ثم قال: والله يا أهل العراق، إن أمير المؤمنين عبد الملك نثل كنانة بين يديه، فعجم عيدانها عوداً عوداً، فوجدني أمرّها عوداً، وأشدها مكسراً، فوجهني إليكم، ورماكم بي. يا أهل العراق، يا أهل النفاق والشقاق ومساوئ الأخلاق، إنكم طالما أوضعتم في الفتنة، واضطجعتم في مناخ الضلال، وسننتم سنن العي، وأيم الله لألحونكم لحو العود، ولأقرعنكم قرع المروة، ولأعصبنكم عصب السلمة ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل، إني والله لا أحلق إلا فريت، ولا أعد إلا وفيت، إياي وهذه الزرافات، وقال وما يقول، وكان وما يكون، وما أنتم وذاك؟. يا أهل العراق! إنما أنتم أهل قرية كانت آمنة

مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان، فكفرتم بأنعم الله، فأتاها وعيد القرى من ربها، فاستوسقوا واعتدلوا، ولا تميلوا، واسمعوا وأطيعوا، وشايعوا وبايعوا، واعلموا أنه ليس مني الإكثار والإبذار والأهذار، ولا مع ذلك النفار والفرار، إنما هو انتضاء هذا السيف، ثم لا يغمد في الشتاء والصيف، حتى يذل الله لأمير المؤمنين صعبكم، ويقيم له أودكم، وصغركم، ثم إني وجدت الصدق من البر، ووجدت البر في الجنة، ووجدت الكذب من الفجور، ووجدت الفجور .

ولاية الوليد

مات عبد الملك بن مروان في ٨٦هـ وتولى ابنه الوليد بعده، فأقر الحجاج على كل ما أقره عليه أبوه، وقربه منه أكثر، فاعتمد عليه. وكان ذلك على كره من أخيه وولي عهده سليمان بن عبد الملك، وابن عمه عمر بن عبد العزيز. وفي ولاية الوليد هدد سليمان بن عبد الملك الحجاج إذا ما تولى الحكم بعد أخيه، فرد عليه الحجاج مستخفاً مما زاد في كره سليمان له ولمظالمه، وإذ ذاك كان قتيبة بن مسلم يواصل فتوحه في المشرق، ففتح بلاداً كثيرة في تركستان الشرقية وتركستان الغربية واشتبكت جيوشه مع جيوش الصين وكان الحجاج من سيره إلى تلك البلاد. وفي نفس الوقت قام ابن أخ الحجاج بفتح بلاد السند(باكستان اليوم).

موت الحجاج

مات الحجاج ليلة الواحد والعشرين من رمضان عام ٩٥هـ وقيل أن موت الحجاج كان بالنقرس، وقبلها مرض مرضاً شديداً.

ترك الحجاج وصيته، وفيها قال: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أوصى به الحجاج بن يوسف: أوصى بأنه يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأنه لا يعرف إلا طاعة الوليد بن عبد الملك، عليها يحيا وعليها يموت وعليها يبعث.. الخ.

تمثل عند احتضاره بهذين البيتين:

يا رب قد حلف الأعداء واجتهدوا أيمانهم أنني من ساكني النار

أيحلفون على عمياء؟ ويحهم ما ظنهم بعظيم العفو غفار

ويروى أنه قيل له قبل وفاته: ألا تتوب؟ فقال: إن كنت مسيئاً فليست هذه ساعة التوبة، وإن كنت محسناً فليست ساعة الفزع. وقد ورد أيضاً أنه دعا فقال: اللهم اغفر لي فإن الناس يزعمون أنك لا تفعل.

دُفن في قبر غير معروف المحلة في واسط، فتفجع عليه الوليد، وجاء إليه الناس من كل الأمصار يعزونه في موته، وكان يقول: كان أبي يقول أن الحجاج جلدة ما بين عينيه، أما أنا فأقول أنه جلدة وجهي كله.

رأي العلماء فيه

قال الإمام الذهبي فيه: كان ظلوماً، جباراً خبيثاً سفاكاً للدماء وكان ذا شجاعة وإقدام ومكر ودهاء، وفصاحة وبلاغة، وتعظيم للقرآن... إلى أن قال: فلانسبهُ ولا نحبه، بل نبغضه في الله، فإن ذلك من أوثق عرى الايمان، وله حسنات مغمورة في بحر ذنوبهِ، وأمره إلى الله وله توحيد في الجُملة، ونظراء من ظلمة الجبابرة الامراء.

قال ابن كثير فيه: كان فيه شهامة عظيمة وفي سيفه رهق (الهلاك والظلم)، وكان يغضب غضب الملوكِ...وقال أيضاً: وكان جباراً عنيداً مقداماً على سفك الدماء بأدنى شبهة، وقد روي عنه ألفاظ بشعة شنيعة ظاهرها الكفر، فإن كان قد تاب منها وأقلع عنها، وإلا فهو باق في عهدتهاولكن يخشى أنها رويت عنه بنوع من زيادة عليه...،وكان يكثر تلاوه القرآن ويتجنب المحارم، ولم يُشتر عنه شيء من التلطخ بالفروج، وإن كان متسرعاً في سفك الدماء. فلا نكفر الحجاج، ولا نمدحه، ولا نسبه ونبغضه في الله بسبب تعديه على بعض حدود الله واحكامه، وأمره إلى الله. كما أن ابن كثير تحدث عن بعض من عينهم الحجاج وكانوا ذوي سمعة طيبة مثل عروة بن المغيرة بن شعبة حيث ولي إمرة الكوفة.

ميراث الحجاج

بنى الحجاج واسط، وسير الفتوح لفتح المشرق، أمر بتنقيط المصحف، خطط الدولة، وحفظ أركان الدولة قامعاً كل الفتن.

غير أن الحجاج خلف أيضاً ميراثاً من الظلم وسفك الدماء لم يسبق له مثيل.

كما خلف في قلوب الناس، حتى الأمويين، كرهاً له وحقداً عليه لأفعاله، ومنها حرب ابن الزبير وقتله إياه في مكة، وما فعله في وقعة دير الجماجم.

وحقد عليه الخوارج لعظيم فعله بهم، والشيعة لعدم احترامه آل البيت، وقالوا فيه الكثير حتى لبسوا سيرته بالخوارق، والأمور المغلوطة، وأمعنوا في تقبيحه، والنيل منه، حتى لقد صوروه شيطاناً.

بقي ميراث الحجاج حياً إلى الآن، فلا يزال موضع حرب وتطاحن بين المختلفين، ولا تزال الأخبار المختلقة تخالط سيرته، ولا زال يُلعن، ويُسب. ويراه الباحثون المنصفون في التاريخ السياسي نموذجاً للطاغية الظالم سفاك الدماء.

مذهبه في الحكم

كان الحجاج يرى بتكفير الخارج على السلطان وطرده من الملة، لذلك كان يرى ما يفعله تقرباً لله يرجو به الأجر. وهذا تناقضاً في فعل الحجاج في قتل المتقين من الناس من أمثال سعيد بن جبير وبين أعمال الخير التي قام بها كالفتوحات وتعظيم القرآن وتنظيم أمور المسلمين.

قيل بعد موته أن رجلاً رفض الصلاة خلف إمام من الخوارج، فقال له أحد أئمة البصرة: إنما تصلي لله ليس له، وإنما كنا نصلي خلف الحروري الأزرقي. قال: ومن ذاك؟ قال: الحجاج بن يوسف، فإنك إن خالفته سماك كافراً وأخرجك من الملة، فذاك مذهب الحرورية الأزارقة.

الحجاج وأهل العراق والشام

العلاقة بين الحجاج وأهل العراق هي من أكثر العلاقات تعقيداً وطرافة، ومن أكثرها ترويعاً في التاريخ الإسلامي، فالحجاج وُلي على العراق كارهاً لأهلها، وهُم له كارهون، واستمرت العلاقة بينهم كزواج كاثوليكي بالإجبار، لا يجوز فيه الطلاق، ولا أمل للفكاك منه إلا بموت أحد الزوجين.

كان الحجاج دائم السب لأهل العراق في خطبه، فكثيرة خطبه التي يذكر فيها أهل العراق بشكل سيئ، والتي يرى فيها العراقيون إساءة إلى اليوم.

فدائماً كان يذكرهم

"يـا أهـل العـراق، يـا أهـل الشـقاق والنفـاق...." إلى آخـر خطبـه، والتـي يمعـن فيهـا في ذكـر صفاتهـم:

"فإنكـم قـد اضجعتـم في مراقـد الضلالـة..."، وغـير ذلـك مـن الخطـب الكثـيرة فيهـم، كراهـة منـه لهـم.

ومـن ذلـك أنـه لمـا أراد الحـج اسـتخلف ابنـه محمـد عليهـم، وخطـب فيهـم أنـه أوصى ولـده بهـم بغـير وصيـة الرسـول في الأنصـار، أن يقبـل مـن محسـنهم ويتجـاوز عـن مسـيئهم، وقـال لهـم: أعلـم أنكـم تقولـون مقالـة لا يمنعكـم مـن إظهارهـا إلا خوفكـم لي، لا أحسـن اللـه لـك الصحابـة، وأرد عليكـم: لا أحسـن اللـه عليكـم الخلافـة.

وأنهـم شـمتوا بـه يـوم فُجـع بولـده محمـد، وأخيـه محمـد في نفـس اليـوم، فخطـب فيهـم متوعـداً إياهـم.

ومـن ذلـك أنـه مـرض فشـاع بـين النـاس موتـه، فخـرج أهـل العـراق محتفلين بموتـه، غير أنـه قـام مـن مرضـه ليخطـب فيهـم خطبـة قـال فيهـا: "وهـل أرجو الخـير كلـه إلا بعـد الموت"

أمـا أهـل الشـام فكانـوا أكـثر النـاس محبـة للحجـاج، وأكثرهـم نـصرة لـه، وبـكاء عليـه بعـد مماتـه، وقيـل أنهـم كانـوا يقفـون عـلى قـبره فيقولـون رحـم اللـه أبـا محمد. وكان الحجـاج محبـاً لهـم، دائـم الإشـادة بخصالهـم، والرفـع مـن مكانتهـم، وكان كثـير الاسـتنصار بهـم، ومعظـم جيشـه كان منهـم، وكان رفيقـاً بهـم.

ألف ليلة وليلة وملامح الطغيان والاستبداد في سيرة الحجاج

مـن الـولاة الّذيـن قدّمتهـم حكايـات ألـف ليلـة وليلـة تقديمـاً سـاخراً الحجّـاج بن يوسـف الثّقفـي (٤٠-٩٥هـ/٦٦٠-٧١٤م)، فهـو ظـالم غشـوم، يختطف زوجات المسـلمين ويقدّمهـنّ هدايـا لسـيّده الخليفـة عبـد الملـك بـن مـروان، كـما تصـوّره حكايـة» نعـم ونعمـة«، إذ تكشـف الحكايـة عـن امـرأة جميلـة اسـمها» نعـم«، وقـد كانـت زوجـة لـ» نعمـة بـن الرّبيـع«، و» لم يكـن بالكوفـة جاريـة أحسـن ولا أحـلى ولا أظـرف منهـا، وقـد كـبرت وقـرأت القـرآن والعلـوم، وعرفـت أنـواع اللّعـب والآلات، وبرعـت في المغنـى وآلات الملاهـي، حتـى أنّهـا فاقـت جميـع أهـل عصرهـا« وكـما يشـيع خـبر جميـع

النّساء الجميلات في مدن ألف ليلة وليلة فقد شاع خبر جمال هذه المرأة في مدينة الكوفة، فيسمع بها الحجّاج، ويقرّر أن يحتال عليها ويخطفها، ويقدّمها هديّة للخليفة الأمويّ عبد الملك بن مروان. ولأنّ لعجائز ألف ليلة وليلة قدرات متميّزة على النصب والاحتيال، فإنّ الحجّاج يلجأ إلى إحداهنّ لمساعدته في حبك الحيلة، واختطاف» نعم «. يقول الرّاوي» ثمّ استدعى بعجوز قهرمانة وقال لها: امضي إلى دار الرّبيع واجتمعي بالجارية نعم، وتسبّبي في أخذها، لأنّه لا يوجد على وجه الأرض مثلها، فقبلت العجوز من الحجّاج ما قاله.

وبطبيعة الحال، فإنّ عمليّة اختطاف الجارية سيكون لها مكافأة ماليّة كبيرة يقدّمها الحجّاج إلى القهرمانة ، وهو مستعدّ لتقديم هذه المكافأة، طالما أنّ خطف هذه الجارية سيحقّق له مكافأة أهمّ، وهي زيادة حظوته عند عبد الملك بن مروان، وبالتالي تغاضي هذا الأخير عن عبث الحجّاج بالمجتمع الإسلاميّ، وتنكيله بشرفاء هذا المجتمع، كما هو معروف تاريخيّاً، إذ أسرف الحجّاج في قتل الناس، ولم يرحم شيوخهم وهم على حافّة الموت، بل أمر بضرب أعناقهم كمال فعل مع الشّيخ عمير بن صابئ.. وقد أُحصِي من قتله الحجّاج بن يوسف»فوُجِد مائةً وعشرين ألفاً، ومات وفي حبسه خمسون ألف رجل، وثلاثون ألف امرأة، (...) وكان يحبس النّساء والرّجال في موضع واحد، ولم يكن للحبس ستر يستر النّاس من الشّمس في الصّيف ولا من المطر والبرد في الشّتاء«مع العلم أنّ جميع هؤلاء القتلى والمساجين» لم يَجِب على أحد منهم قطع ولا قتل« ويقول راوي الحكاية:» ثمّ إنّ العجوز توجّهت إلى الحجّاج. فقال لها: ما وراءك؟ فقالت له: إنّي نظرت إلى الجّارية فرأيتها لم تلد النّساء أحسن منها في زمانها. فقال لها الحجّاج: إن فعلت ما أمرتك به يصل إليك منّي خير جزيل. فقالت له: أريد منك المهلة شهراً كاملاً. فقال لها: أمهلك شهراً».

وتستطيع القهرمانة خلال هذا الشّهر أن تقدّم نفسها لـ نعمة بن الربيع«وزوجته» نعم«وأسرته، على أنّها مثال للزّاهدة المتعبّدة، الفانية عمرها في الرّكوع والسّجود والدّعاء والصّوم. وعندما يتأكّد كل من في الدّار أنّهم أمام سيّدة زاهدة، تختلي العجوز بالجارية» نعم« وتقول لها:» يا سيّدتي والله إنّي

حضرت الأماكن الطّاهرة ودعوت لك، وأتمنّى أن تكوني معي حتى تري المشايخ الواصلين ويدعون لك بما تختارين« . وتنطلي الحيلة عليها، وعلى أمّ زوجها، عندما كان زوجها خارج منزله، إذ تقول» نعم«لأمّ زوجها:» سألتكِ بالله أن تأذني لي في الخروج مع هذه المرأة الصّالحة لأتفرّج على أولياء الله في الأماكن الشّريفة، وأعود بسرعة وقبل مجيء سيّدي«. وأمام دهاء العجوز القهرمانة وورعها الزّائف، وتوق الجارية لزيارة الأماكن الشّريفة، اضطرّت الأم لأن تسمح لزوج ابنها بالخروج، وما إن تخرج الزّوجة» نعم« من دارها حتى تسارع القهرمانة بالاحتيال عليها، وأخذها إلى قصر الحجّاج بن يوسف بالكوفة، القصر الذي تظنّه» نعم«، للوهلة الأولى، مكاناً طاهراً يجتمع فيه أهل الذّكر من أولياء الله الصّالحين:» ثمّ أخذت الجارية بالحيلة وتوجّهت بها إلى قصر الحجّاج، وعرّفته بمجيئها بعد أن أدخلتها في مقصورة، فأتى الحجّاج ونظر إليها، فرآها أجمل أهل زمانها ولم ير مثلها، فلمّا رأته نعم سترت وجهها، فلم يفارقها حتى استدعى حاجبه وأركب معها خمسين فارساً ، وأمره أن يأخذ الجارية على نجيب سابق، ويتوجّه بها إلى دمشق، ويسلّمها إلى أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان، وكتب له كتاباً».

إنّ للعجائز في ألف ليلة وليلة قدرة عجيبة على المكر والإحتيال، إذ تشير حكايات اللّيالي إلى أنّ هذه العجائز اكتسبن في حياتهنّ، ومن خلال تعاملهنّ مع رجال عصرهنّ ونسائهنّ، خبرة كبيرة في اصطياد الجواري الجميلات، وتقديمهنّ للرّجال العشّاق، مقابل مكافأة مالية. وكان الرّواة جريئين عليهنّ، فعلى سبيل المثال نجد أنّ أحد الرّواة يصف العجوز شواهي ذات الدّواهي في حكاية» عمر النعمان وولديه شركان وضوء المكان« بالعاهرة، وبـ» سيّدة العجائز الماكرة ومرجع الكهّان في الفتن الثّائرة«. وفي حكاية» علي الزيبق المصري ودليلة المحتالة ابنتها زينت النّصّابة«، يصف الرّاوي العجوز دليلة المحتالة بأنّها أخبث من إبليس الذّي كان قد تعلّم المكر منها، فقد كانت» صاحبة حيل وخداع ومناصف وكانت تتحيّل على الثّعبان حتى تطلعه من وكره! وكان إبليس يتعلّم منها المكر! «والعجوز في حكاية» نعم ونعمة « متقنّعة بثياب الزّهاد،» «وفي تسبيح وابتهال وقلبها ملآن بالمكر والاحتيال».

ولا تخلو مدينة من مدن ألف ليلة وليلة من العجائز الماكرات والمحتالات، إلاّ أنّه من الملاحظ أنّ أهمّ المدن الإسلاميّة في ألف ليلة وليلة، والتي تجد فيها هذه العجائز مرتعاً خصباً لممارسة عمليّات النّصب والاحتيال، هي بالترتيب: بغداد والقاهرة ودمشق، وبخاصّة في عهدي الدّولتين الأمويّة والعبّاسيّة. ويمكن تفسير ظاهرة النّصب والاحتيال في هذه المدن،بأنّها كانت نتيجة لتفشّي ظاهرة الطّغيان والتسلّط ـ في هاتين الدّولتين اللّتين حكمتا هذه المدن ـ من جهة، وما رافق هذه الظاهرة من ظلم الحكّام وفجورهم وابتعادهم عن هموم شعوبهم ومصائبها من جهة أخرى. ومن هنا كانت الحيلة، في بنيتها العميقة، حيلة ضدّ المظالم، وضدّ المجتمع نفسه، بجميع تشكيلاته الطّبقيّة سياسيّاً واجتماعيّاً. وتورّط في هذه الحيلة الفقراء والأغنياء، النّساء والرّجال، رجال السلطة وعامّة الشعب. فالشخصيّة المستلبة المحرومة من لقمة عيشها تحتال لأجل هذه اللقمة، والأغنياء يحتالون لزيادة ثرواتهم، والملوك والسلاطين والخلفاء يحتالون لزيادة جواريهم وأملاكهم، والوزراء يحتالون على ملوكهم وبناتهم الأميرات الجميلات، ونساء السلطة المتخمات ثراءً وبطراً يحتلن لإشباع متطلباتهنّ الجنسيّة والمحرّمة، ونساء التجار تحتال على أزواجهن للخروج من المنازل والوصول إلى عشّاقهنّ من الغلمان الظرفاء، والقهرمانة العجوز في حكاية» نعم ونعمة« تجد نفسها مندفعة للتورّط في الحيلة، لأنّها تحقّق من خلالها امتلاك الثروة من جهة، وتأمن شرّ السلطة السياسيّة وبطشها من جهة أخرى، فهي لا تستطيع أن ترفض طلب والٍ ظالم كالحجّاج بن يوسف الثقفي.

و قد أدّى سعار التجديد الجنسيّ عند شخوص ألف ليلة وليلة في المدن الإسلاميّة، في أحيان كثيرة، إلى ظهور نوع من العجائز المحتالات، والعارفات بفنون الصبوة والعشق وسعار الجسد، والمتخصّصات في خطف النساء، إلاّ أنّ حيل العجائز في الليالي ليست قصديّة، أو ليست موجودة عند هذه العجائز لأنّ لهنّ طاقة عجيبة على الشرّ والمكر، وعلى تعليم إبليس فنون الحيلة كما يرى أحد الرّواة، وكما أشير إلى ذلك سابقاً، بل لأنّ المجتمع الذي عايشته هذه العجائز هو مجتمع التّباين الطّبقي، ومجتمع الذّكور

الـذي تُحـرم فيـه النّسـاء من كثير مـن امتيـازات الرّجال، المجتمـع الذّي يلـد الرّجـال،» أي ما يمكـن أن نقـول عنـه، بـأنّ الرّجـل يلـد الرّجـل، والذّكـر داخل ابنـه الذّكر، واسـم الـدّم والمنيّ داخـل الابـن، وحسـب هـذا النّظـام كانـت المـرأة(...) الجهيـض المنحـرف والثّانـوي« ومـن هنـا فـإنّ حيلـة النسـاء بشـكل عـام في اللّيـالي كانـت نتيجـة للبنـى الاقتصاديّـة والاجتماعيّة والسّياسـيّة الفاسـدة، التـي يشـكّلها الحـكّام الذّكـور، ورجـال السّـلطة الأقويـاء، والتـي يُؤذى منهـا، بالإضافـة إلى النّسـاء، الرّجـال الفقـراء الفاقـدون لجميع وسـائل القـوّة والملكيّـة. ويرى أحـد الباحثـين أنّ» ظاهـرة العجـوز [المحتالـة] في اللّيـالي تجسـيد لمعانـاة الجـواري والحرائـر عـلى حـدّ سـواء بـكل جوانبهـا المضطربـة مـما جعـل سـلوكها في اللّيـالي امتـداداً للـذّات المحرومـة فراحـت تخطّـط لتحقيـق آمـال تعينهـا عـلى سـحق الحرمـان بسـلوك كان يعتبره المجتمـع السّـائد مقبـولاً بالإضافـة إلى خضوعـه للوقائـع اليوميّـة في ممارسـات الحياة«.

وبالعـودة إلى حكايـة» نعـم ونعمـة« يُلاحـظ أنّ الحجّـاج لا يعمـل عـلى العبـث بأمـن مواطنيـه في الكوفـة، وتفريقهـم عـن أزواجهـم، وتهجيرهـم قسريّـاً عـن أوطانهـم، ونـشر بـذور الفسـاد، وذلـك بتشـجيع مفاهيـم الاحتيـال والاختطـاف فحسـب، بـل هـو يكـذب عـلى الخليفـة عبـد الملـك بـن مـروان، ويدّعـي أنّـه اشـترى لـه الجاريـة الجميلـة» نعـم« بعـشرة آلاف دينـار.

يقـول الـرّاوي:» فتوجّـه الحاجـب وأخـذ الجاريـة عـلى هجين، وسـافر بها وهـي باكية العـين مـن أجـل فـراق سـيّدها، حتـى وصلـوا إلى دمشـق، واسـتأذن عـلى أمير المؤمنـين فأذن لـه، فدخـل الحاجـب عليـه وأخـبره بخـبر الجاريـة، فأخـلى لهـا مقصـورة. ثـم دخـل الخليفة حريمـه فـرأى زوجتـه، فقـال لهـا: إنّ الحجّـاج قـد اشـترى لي جاريـة من بنـات ملـوك الكوفة بعـشرة آلاف دينـار، وأرسـل إليّ هـذا الكتـاب وهـي صحبـة الكتاب«.

إنّ سـلوك الحجّـاج في الحكايـة، وهـو يخطـف النّسـاء، ويؤسّـس لما يهـدم القيـم الإنسـانيّة في المدينـة الإسـلاميّة، مـن كـذب واحتيـال،و تفريـق بـين المحبّـين، وتهجيـر قـسري لهـم، ليـس غريبـاً أو بعيـداً عـن مجمـل مواقفـه وتصرّفاتـه التّاريخيّـة التـي كانـت معاديـة لجميـع مفاهيـم الحـقّ والعـدل، والرّحمـة بالرّعيّـة. وهاهـو يعـترف بنفسـه أنّ فيـه كثـيراً مـن العيـوب التـي تؤكّـد معاداتهـا للمفاهيـم الإنسـانيّة التـي

يجب أن يتحلّى بها من يصبح والياً على المسلمين، من خلال حواره الآتي مع الخليفة عبد الملك بن مروان:» وقال عبد الملك بن مروان للحجّاج: إنّه ليس من أحد إلاّ وهو يعرف عيب نفسه، فصِف لي عيوبك.

قال: أعْفِني يا أمير المؤمنين.

قال: لست أفعل.

قال: أنا لجوج لدود حقود حسود.

قال: ما في إبليس شرٌّ من هذا)).

ويدين الرّاوي في حكاية» نعم ونعمة« جلاوزة الحجّاج، وصاحب شرطته، إذ يصوّره متقاعساً عن كشف جرائم الاختطاف التي تحدث في الكوفة، ومتواطئاً مع سيّده الحجّاج في التّغطية على خطف» نعم« جارية» نعمة«، إذ بعد أن تُخطف الجارية يشكّ» نعمة« بأنّ الذي خطف جاريته هو صاحب الشّرطة، فيتوجّه إلى داره، ويتوعّده بأنّه سيشكوه إلى الحجّاج إن لم يرجع الجارية له. يقول الرّاوي:» ثمّ توجّه إلى صاحب الشّرطة فقال له: أتحتال عليّ وتأخذ جاريتي من داري فلا بدّ لي أن أسافر وأشتكيك إلى أمير المؤمنين. فقال صاحب الشّرطة: ومن أخذها؟ فقال: عجوز صفتها كذا وكذا، وعليها ملبوس من الصّوف وبيدها سُبْحة عدد حبّاتها ألوف. فقال له صاحب الشّرطة: أوقفني على العجوز وأنا أخلّص لك جاريتك. فقال: ومن يعرف العجوز؟ فقال له صاحب الشّرطة: ما يعلم الغيب إلاّ الله سبحانه وتعالى. وقد علم صاحب الشّرطة أنّها محتالة الحجّاج، فقال له نعمة: ما أعرف حاجتي إلاّ منك وبيني وبينك الحجّاج. فقال له: امضِ إلى من شئت.«. إلاّ أنّ خيبة» نعمة بن الرّبيع« كانت شديدة عندما استمع إلى المسرحيّة الهزليّة التي افتعلها الحجّاج مع صاحب شرطته، طالباً منه أن يبحث عن العجوز المحتالة، وعن الجارية» نعم«، ويعيدها إلى صاحبها:» فقال [الحجّاج]: هاتوا صاحب الشّرطة فنأمره أن يفتّش على العجوز. فلمّا حضر صاحب الشّرطة قال له: أريد منك أن تفتّش على جارية نعمة بن الرّبيع. فقال له صاحب الشّرطة: لا يعلم الغيب إلاّ الله تعالى. فقال له الحجّاج: لا بدّ أن تركب الخيل وتبصر الجارية في الطّرقات وتنظر

في البلدان(...) والطّرقات وتفتّش على الجارية. ثمّ التفت إلى نعمة وقال له: إن لم ترجع جاريتك دفعت لك عشر جوارٍ من دار صاحب الشّرطة«.

وعندما سمع» نعمة« ما قاله الحجّاج، خرج يائساً وذهب إلى داره، فشاهده والده الرّبيع بن حاتم الذي كان من أكابر أهل الكوفة ووجهائها، وخبيراً عارفاً بأخلاق الحجّاج وتجاوزاته، وتواطؤ صاحب شرطته، وتغطيته لهذه التّجاوزات، وتأكّد أنّ الذي خطف زوج ابنه هو الحجّاج بن يوسف الثّقفي. يقول الرّاوي:» وخرج نعمة مغموماً وقد يئس من الحياة، وكان قد بلغ من العمر أربع عشرة سنة، ولا نبات بعارضيه، فجعل يبكي وينتحب، وانعزل في داره. ولم يزل يبكي إلى الصّباح، فأقبل والده عليه وقال: يا ولدي إنّ الحجّاج قد احتال على الجّارية وأخذها، ومن ساعة إلى ساعة يأتي الله بالفرج من عنده، فتزايدت الهموم على نعمة وصار لا يعلم ما يقول ولا يعرف من يدخل عليه. وأقام ضعيفاً ثلاثة أشهر حتّى تغيّرت أحواله ويئس منه أبواه، ودخلت عليه الأطباء فقالوا: ما له دواء إلاّ الجارية«.

وما إن يصل» نعمة بن الرّبيع« إلى دمشق، لأجل البحث عن جاريته، حتى يكشف السّرد الحكائي عن وجود جاريته» نعم« في قصر عبد الملك بن مروان. وهنالك في قصر الخليفة تنكشف الحقيقة، وتؤكّد أخت الخليفة أنّ الحجّاج كان كاذباً في ما ادّعاه:» فقالت أخت الخليفة: يا أمير المؤمنين إنّ هذه الواقفة هي نعم المسروقة. سرقها الحجّاج بن يوسف الثّقفي وأوصلها لك، وكذب فيما ادّعاه في كتابه من أنّه اشتراها بعشرة آلاف دينار، وهذا الواقف هو نعمة بن الرّبيع سيّدها، وأنا أسألك بحرمة آبائك الطّاهرين أن تعفو عنهما وتهبهما لبعضهما، لتغنم أجرهما، فإنّهما في قبضتك وقد أكلا من طعامك وشربا من شرابك، وأنا الشّافعة فيهما المستوهبة دمهما«.

وتؤكّد الحكاية أنّ الخليفة عبد الملك بن مروان عفا عنهما، ووهبها لبعضهما. وقد يتساءل متلقّي الحكاية: لِمَ تستحلف أخت الخليفة ـ التي لا يذكر الرّاوي اسماً لها ـ أخاها أن يعفو عنهما؟ وما هي الجريمة التي ارتكباها حتى يعفو عنهما؟ وما جدوى هذا العفو مادام لا يوجد هناك أية جريمة؟. فبحث» نعمة«

عـن زوجتـه هـو بحـث مـشروع، ولم يكـن متجـاوزاً لهيبـة الخليفـة وسـلطاته، مادامـت الجاريـة الأسـيرة في قـصره هـي زوجـة رجـل مـن رعاياه كان قـد ظلمـه الحجّـاج والي هـذا الخليفـة. ولأنّ الـرّاوي في هـذه الحكايـة مؤدلـج ضـدّ الـوالي الظّـالم الحجّـاج، ومتعاطـف مـع سـيّده عبـد الملـك بـن مـروان في آن، فقـد رأى ضرورة أن يتحـلّى أمـير المؤمنـين بدمشـق، بالحكمـة والعـدل، اللّذيـن يدفعانـه للعفـو عـن» نعمـة« وزوجتـه» نعـم«. وقـد اضطّـر أن يقـول عـلى لسـان الخليفـة:» لا بـأس عليكـما فقـد وهبتكـما لبعضكـما«. وقـد غـاب عـن إيديولوجيـة هـذا الـرّاوي أنّ» نعمـة« و» نعـم« ليسـا مجرمـين بحـق سـلطة عبـد الملـك بـن مـروان وسياسـته، وأنّ هـذا العفـو في المحصّلـة الأخـيرة ليـس كرمـاً مـن الخليفـة، ولا مأثـرة مـن المآثـر الّتـي يجـب أن تُذكَـر لـه، مـادام المعفـو عنهـما مظلومـين ومهجّريـن مـن قبـل واليـه المحتـال الحجّـاج. ويمكـن القـول: إنّ أي رجـل عـادي سـويّ جنسـيّاً، ومسـتقيم أخلاقيّـاً، لـو وُضَـع موضـع الخليفـة عبـد الملـك بـن مـروان لـكان قـد تـصرّف مثلـه، وأرجـع» نعـم« لسـيّدها» نعمـة«.

و مـن الملاحـظ، أنّـه عـلى الرّغـم مـن أنّ عبـد الملـك بـن مـروان تأكّـد أنّ واليـه الحجّـاج قـد اعتـدى عـلى حرمـة المـرأة» نعـم« وكرامتهـا، وسـلبها حرّيتهـا بالخطـف، وحوّلهـا إلى جاريـة مسـتلبة، وهجّرهـا قسريّـاً مـن مدينتهـا الكوفـة، وحرمهـا مـن زوجهـا» نعمـة«. وسـبب تعاسـة لهـذا الـزّوج كادت تفتـك بـه، واجـترأ وكـذب عـلى الخليفـة ـ عـلى الرّغـم مـن أنّـه يمثّـل أعـلى رمـز سـياسيّ سـلطويّ، ودينـيّ في الدّولـة الإسـلاميّة قاطبـة، في عهـد بنـي أميّـة ـ وعـلى الرّغـم مـن كل ذلـك ، فـإنّ الحكايـة تنتهـي مـن دون أن تشـير أيـة إشـارة إلى أنّ الخليفـة عاقـب واليـه الحجّـاج عـلى جريمتـه أو أدانـه، أو حتّـى اسـتدعاه، وسـأله: لمـاذا ينتهـك حرمـات منـازل المسـلمين، ويعتـدي عـلى حرّيـات المواطنـين في الكوفـة؟. ولقـد غـاب عـن الـرّاوي المتعاطـف مـع نظـام السّـلطة الإسـلاميّة المركزيّـة بدمشـق، والّتـي يمثّلهـا عبـد الملـك بـن مـروان، أنّ انفـراج الحكايـة عـلى نهايـة سـعيدة، ينعـم بهـا أبطـال الحكايـة: عبـد الملـك بن مـروان، و» نعمـة« و» نعـم«، والطبيـب العجمـي الـذي سـافر مـع» نعمـة« مـن الكوفـة إلى دمشـق، حيـث» أقامـوا في أطيـب عيـش إلى أن أتاهـم هـادم اللّـذات ومفـرّق الجماعات

«، ليس شرطاً أن يشكّل حالة سعيدة، أو أدنى مستوى من مستويات العيش الطّيب عند مواطني الكوفة الّذين يتعرّضون لمزيد من ظلم الحجّاج وانتهاكاته لحرمات منازلهم، طالما أنّ الخليفة تجاوز عن جريمة الحجّاج ولم يعاقبه عليها، وطالما أنّه ما دام قائماً على رأس السّلطة السّياسيّة والدّينيّة في الكوفة.

ويشير المؤرّخون، إلى أنّ الحجّاج بقي والياً للخليفة عبد الملك بن مروان، طوال استلام هذا الأخير لمنصب خلافة المسلمين في دمشق الأمويّة، ولم يعزله عن العراق أو يسجنه أو يعاقبه العقاب الرّادع الّذي يجعله يكفّ عن أذى المسلمين وسجنهم وسفك دمائهم، على الرّغم من معرفته الأكيدة بما سبّبه واليه الحجّاج للمسلمين من أذى ومصائب، وتقتيل وتنكيل، لأنّه هو الّذي سلّطه على النّاس، وأطلق يده فيهم، وسمح له برمي الكعبة بالمنجنيق. وربّما كان قد آلمه أسلوب القتل والتّنكيل الّذي انتهجه الحجّاج، لأنّه عندما بلغه أنّ الحجّاج قتل الشّاعر عمران بن عصام العنزي وابن الأشعث، استنكر قائلاً:» قطع الله يد الحجّاج«. ومات عبد الملك بن مروان سنة ٨٦هـ/٧٠٥م، واستلم ابنه الوليد بن عبد الملك مقاليد الحكم، وظلّ الحجّاج والياً في عهده، منتهجاً السّياسة التي انتهجها في عهد أبيه عبد الملك، من سجن وترهيب وقتل، إلى أن مات سنة خمس وتسعين هجرية، في مدينة واسط العراقيّة. وبعد موته، يتأمّل الخليفة الأمويّ سليمان بن عبد الملك (٩٦ ـ ٩٩هـ/٧١٥ ـ٧١٧م)، ما جرى للّذين ظلمهم الحجّاج، ويسأل كاتبه يزيد بن أبي مسلم بعد أن» ازدراه ونبت عينه عنه«،عن مصيره قائلاً:» أتظنّ الحجّاج استقرّ في قعر جهنّم أم هو يهوي فيها«، ويجيبه الكاتب قائلاً:» يا أمير المؤمنين، إنّ الحجّاج يأتي يوم القيامة بين أخيك وأبيك، فضعه من النّار حيث شئت« .

إنّ الحجّاج بن يوسف الثّقفي في حكاية» نعم ونعمة« يظلم» نعمة« ويخطف جاريته، وصاحب شرطته يتغاضى عن هذا الظّلم، والخليفة عبد الملك بن مروان يتغاضى عن ظلمهما معاً. وهكذا تتسلسل حلقات المظالم، لتتشابك فيما بينها، وتشكّل حلقة واحدة متماسكة، يستحيل على الأفراد البسطاء في مدن ألف ليلة وليلة الأمويّة أو العبّاسيّة، أو الأسطوريّة، أن يخترقوها، أو يهربوا من

قبضتها . وتذكّرنا هذه الحلقة من المظالم بهذه السّلسلة من الخيانات التي تتحكّم في بنية النّظام الأمويّ، من قاعدته حتى رأسه ، وتنخره وتملؤه شرّاً وفساداً، والتي يذكرها ابن عبد ربّه الأندلسيّ قائلاً:» اطّلع مروان بن الحكم على ضيعة له بالغوطة فأنكر منها شيئاً، فقال لوكيله: ويحك! إنّي لأظنّك تخونني.

قال: أفتظنّ ذلك ولا تسْتَيقِنُه؟.

قال: وتفعله؟.

قال: نعم، والله إنّي لأخونك، وإنّك لتخون أمير المؤمنين، وإنّ أمير المؤمنين ليخون الله، فلعن الله شرّ الثلاثة«.

ويتفق رواة ألف ليلة وليلة، في الحكايات التي ذكرت الحجّاج بن يوسف الثقفي، على أنّه أهمّ ممثلي الولاة الظلمة والاستبداديين الذين ذكرتهم الليالي، ورسمت ملامحهم، تأسيساً على الأدبيّات التاريخيّة التي ساعدت رواة الليالي على تشكيل حكاياتهم، أو نقلها بتحويرات طفيفة جدّاً. ففي حكاية» رجل من الحجيج مع المرأة العجوز« ينقل الراوي بعض ما قرأه من آراء الفقهاء في ضرورة وجود السلطان في الأمّة، حتّى ولو كان هذا السلطان جائراً، ويقول:» وفي الأمثال: جور السلطان مائة سنة ولا جور الرعيّة بعضهم على بعض سنة واحدة، وإذا جارت الرعيّة، سلّط الله عليهم سلطاناً جائراً، وملكاً قاهراً«.

ولكي يؤكّد الراوي أنّ الحجّاج بن يوسف الثقفي كان جائراً في سياسته على مواطنيه في العراق، فإنّه يُثبّت الرأي الفقهي السابق بوصفه مدخلاً، يستطيع من خلاله أن يُثبّت إيديولوجيته المعادية للحجاج، هذه الإيديولوجيّة التي تتبنّى في آن النظرية الفقهيّة السابقة التي دعا إليها بعض الفقهاء. ومن خلال المدخل الفقهيّ السابق يثبت راوي الحكاية آراء الحجّاج بن يوسف التي يعتمدها منهجاً له في رسم سياسته الجائرة، ومن ثمّ ليشير إلى استنكار الناس لهذه السياسة البعيدة عن تقوى الله ومرضاته:» ورد في الأخبار أنّ الحجّاج بن يوسف رُفِعت إليه في بعض الأيام قصّة مكتوب فيها: اتقّ الله ولا تجر على عباد الله كلّ الجور. فلمّا قرأ القصّة رقي المنبر وكان فصيحاً فقال: أيّها الناس إنّ الله تعالى سلّطني

عليكم بأعمالكم فإن أنا متّ فأنتم لا تخلصون من الجور مع هذه الأعمال السيّئة لأنّ الله تعالى خلق أمثالي خلقاً كثيراً وإذا لم أكن أنا كان من هو أكثر منّي شرّاً وأعظم جوراً وأشدّ سطوةً كما قال الشاعر في معنى ذلك:

و لا ظالم إلاّ سيبلى بأظلم و ما من يد إلاّ يد الله فوقها

و إذا كان الحجّاج يُسوّغ لنفسه جوره وساديته، وتنكيله بعباد الله في المدن الإسلاميّة التي يحكم أمرها، لأنّ لهؤلاء العباد مواقف رافضة ومعادية لسياسته الدمويّة، فإنّه في نهاية المطاف لا يمثّل إلاّ وجه المستبدّ الظالم، الذي يقف وراءه نظام سياسيّ اكثر استبداداً وظلماً منه، ليعزّز بطشه، ويُسوّغ له سياسته الساديّة المعادية لأفراد شعبه، فـ» الحكومة المستبدّة تكون طبعاً مستبدّة في كلّ فروعها من المستبدّ الأعظم إلى الشرطيّ إلى الفرّاش، إلى كنّاس الشوارع؛ ولا يكون كلّ صنفٍ إلاّ من أسفل أهل طبقته أخلاقاً، لأنّ الأسافل لا يهمّهم طبعاً الكرامة وحسن السمعة، إنّما غاية مسعاهم ان يبرهنوا لمخدومهم بأنّهم على شاكلته (...) ولهذا لا بدّ أن يكون الوزير الأعظم للمستبدّ هو اللئيم الأعظم في الأمّة، ثمّ من دونه دونه لؤماً وهكذا تكون مراتب الوزراء والأعوان حسب مراتبهم في التشريفات والقربى منه«.

وتاريخيّاً تشير المصادر إلى أنّ السياسة التي كان ينتهجها الحجّاج كانت تتأسّس على خطاب استبدادي قامع، يرتكز في بنيته الأساسيّة على تهديد أهل العراق والتنكيل بهم، والسخرية منهم، حتى يستطيع إذلالهم وتسخيرهم، وليّ هاماتهم أمام سطوة النظام السيّاسيّ الذي يمثّله، فمنذ أن وصل الكوفة دخل المسجد الجامع فيها، واعتلى المنبر وخطب:

«والله إنّي لأرى رؤوساً أينعت وقد حان قطافها وإنّي لصاحبها، وإنّي لأرى الدماء ترقرق بين العمائم واللّحى، والله يا أهل العراق إنّ أمير المؤمنين نثر كنانته بين يديه، فعجم عيدانها، فوجدني أمرّها عوداً وأصلبها مكسراً فرماكم بي، لأنّكم طالما أثرتم الفتنة، واضطجعتم في مراقد الضّلال، والله لأنكّلنّ بكم في البلاد ولأجعلنّكم مثلاً في كل واد، ولأضربنّكم ضرب غرائب الإبل، وإنّي يا أهل العراق لا أعد إلا وفيت،

ولا أعـزم إلاّ أمضيـت (...) فاسـتوثقوا واسـتقيموا واعملـوا ولا تميلـوا وتابعـوا وبايعـوا، واجتمعـوا، واسـتمعوا، فليـس منّـي الإهـدار والإكثـار وإنمّـا هـو هـذا السّـيف«.

ولقـد كان الحجّـاج، في مـا بعـد، وفيّـاً بوعـده، إذ أعمـل السّـيف في أهـل العـراق وذبـح رجالهـم وشـيوخهم، وسـجن نسـاءهم واسـتأصل أموالهـم . وهاهـو يعـترف أمـام خالـد بـن يزيـد بـن معاويـة ذاكـراً عـدد الذيـن قتلهـم كـما يـروي أبـو الفـرج الأصفهـاني:» قـدم الحجّـاج عـلى عبـد الملـك [بـن مـروان] فمـرّ بخالـد بـن يزيـد بـن معاويـة ومعـه بعـض أهـل الشّـام، فقـال الشّـامي لخالـد: مـن هـذا؟ فقـال خالـد كالمسـتهزئ: هـذا عمـرو بـن العـاص، فعـدل إليـه الحجّـاج فقـال: إنّي واللـه مـا أنـا بعمـرو بـن العـاص، ولا ولـدت عمـرواً ولا ولـدني ولكنّـي ابـن الغطاريـف والعقائـل، مـن قريـش، ولقـد ضربـت بسـيفي أكـثر مـن مائـة ألـف كلّهـم يشـهد أنّـك وأبـاك مـن أهـل النّـار، ثـمّ لم أجـد لذلـك عنـدك أجـراً ولا شـكراً«.

ويقـدّم أحـد الـرّواة الحجّـاج في حكايـة» الحجّـاج بـن يوسـف الثّقفـي مـع هنـد بنـت النّعـمان« تقديمـاً سـاخراً. إذ يجعـل زوجتـه هنـد بنـت النعـمان تجـترئ عليـه وتصفـه بالكلـب وتبـدي فرحهـا الشّـديد بتطليقـه لهـا، فعندمـا أراد الحجّـاج طلاقهـا:» بعـث إليهـا عبـد اللـه بـن طاهـر يطلّقهـا، فدخـل عبـد اللـه بـن طاهـر عليهـا، وقـال لهـا: يقـول لـك الحجّـاج أبـو محمّـد إنّ لـك عليـه مـن باقـي الصَّـدَاق مائتـي ألـف درهـم، وهـي هـذه حـضرت معـي وقـد وكّلنـي في الطّـلاق فقالـت: اعلـم يـا ابـن طاهـر أنّنـا كنّـا معـه واللـه مـا فرحـت بـه يومـاً قـط، وإن تفرّقنـا واللـه لا أنـدم عليـه أبـداً، وهـذه المائتـا ألـف درهـم لـك بشـارة خـلاصي مـن كلـب بنـي ثقيـف«. ومـن شـدّة احتقارهـا لـه فإنّهـا عندمـا تتأمّـل نفسـها في المـرآة تـرى أنّهـا مهـرة عربيّـة وأنّ زوجهـا الحجّـاج بغـل لا يسـتحقّها، وتعتقـد أنّ سـلالتها الصافيـة النقيّـة هـي القـادرة عـلى إنجـاب الأولاد المتميّزيـن عرقـاً وأصالـة، وفي حـال أنّ هـذه السّـلالة عجـزت عـن إنجـاب هـؤلاء الأولاد فـإنّ السّـبب الرئيـس في ذلـك يعـود إلى خسّـة الحجّـاج، ودونيّـة منزلتـه، وسـلالته غـير القـادرة عـلى إنجـاب المتفوّقـين بيولوجيّـاً وعرقيّـاً، تقـول:

سلالة أفراس تخلّلها بغل
وإن ولدت بغلاً فجاء به البغل
وما هند إلاّ مهرة عربية
فإن ولدت فحلاً فللّه درّها

وعندما يسمع الخليفة الأمويّ عبد الملك بن مروان بحسنها وجمالها، يرسل إليها راغباً الزّواج بها، فتكتب إليه محتقرةً زوجها السّابق ـ الحجّاج! «الثّناء على الله والصّلاة على نبيّه محمّد صلّى الله عليه وسلّم، أمّا بعد، فاعلم يا أمير المؤمنين أنّ الكلب ولغ في الإناء». ويرسل إليها مؤكّداً رأيها في الحجّاج ومحتقراً له، من خلال استناده إلى حديث من أحاديث رسول الله (ص). يقول الرّاوي:» فلمّا قرأ كتابها أمير المؤمنين ضحك من قولها، وكتب لها: قوله صلّى الله عليه وسلّم» إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليغسله سبعاً إحداهنّ بالتراب« وقال اغسلي القذى عن محلّ الاستعمال».

ومن ملامح احتقار الخليفة عبد الملك بن مروان لعامله الحجّاج أنّه يرضى بالشرط الذّي اشترطته هند على الخليفة حتّى تقبله زوجاً، فقد اشترطت عليه ما يلي:» بعد الثّناء على الله تعالى يا أمير المؤمنين إنّي لا أجري العقد إلاّ بشرط فإن قلت ما الشّرط، أقول: أن يقود الحجّاج محملي إلى بلدك التي أنت فيها، ويكون حافياً بملبوسه الّذي هو لابسه«. ويوعز للحجّاج أن يقود محملها من بلدها معرّة النعمان إلى مدينة دمشق مقرّ الخلافة، فيمتثل الحجّاج للأمر، ويسافر من العراق إلى بلدها معرّة النعمان ليقود محملها إلى دمشق حافياً ذليلاً. وبقدر ما يبدو شرط هذه المرأة سخيفاً ومتسلّطاً وفاقداً لأبسط مفاهيم القيم الإنسانيّة والجماليّة، في علاقات الزّواج في المدينة الإسلاميّة، يبدو قبول الخليفة عبد الملك بن مروان بهذا الشّرط احتقاراً ومهانة لعامله الحجّاج، وبخاصة عندما يمشي حافياً أمام محمل زوجته السّابقة، وهي تتشفّى منه محتقرةً. يقول الرّاوي:» فلمّا ركبت المحمل وركب حولها جواريها وخدمها ترجّل الحجّاج وهو حافٍ وأخذ بزمام البعير يقوده وسار بها! فصارت تسخر منه وتهزأ به وتضحك عليه مع بلاّنتها وجواريها«. هذا

إذا عرفنا أنّ المسافة التي يجب على الحجّاج أن يقطعها حافياً، وهي ما بين معرّة النعمان ودمشق، تقدّر بحوالي أربعمائة كيلومتر.

وليس غريباً أن يقبل عبد الملك بن مروان بشرط هذه المرأة حتّى ترضى به زوجاً بعد أن سلب منه كرسيّ السّلطة حبّه للعلم والمعرفة، والقيم الأخلاقيّة الإنسانيّة التي دعا إليها النّص القرآني، إذ يُروى عن هذا الخليفة أنّه كان» قبل الخلافة أحد فقهاء المدينة، وكان يُسمّى حمامة المسجد، لمداومته على قراءة القرآن. فلمّا مات أبوه وبُشّر بالخلافة أطبق المصحف وقال: هذا فراق بيني وبينك. وتصدّى لأمور الدّنيا. وقيل إنّه قال يوماً لسعيد بن المسيّب: يا سعيد قد صرت أفعل الخير، فلا أُسرّ به وأصنع الشّر فلا أُساء به. فقال له سعيد ابن المسيّب: الآن تكامل فيك موت القلب«.

إنّ هذا الشّرط الغرائبيّ الذي اشترطته هند على الخليفة، وقبوله به لا يعني إلاّ شذوذاً وانحرافاً في التفكير والسّلوك، يسعى صاحبه إلى تحقيق رغبة استبداديّة ساديّة من رغبات الخلفاء ونساء السّلطة في مدن ألف ليلة وليلة، إذ تغيب ظاهرة الحلم والعفو عند هؤلاء ليحلّ محلّها سلوك مستبّد يُرضي طموح ذات سلطويّة مريضة، لا ترى في شعبها إلاّ قطيعاً مهمّته أن يظلّ منقاداً لها، و» كما تقضي الطّبيعة بأن يقود الرّاعي قطيعه، ويتصرّف به، وبأن يستجيب القطيع لراعيه ويتبعه، تقضي بأن يقود الحاكم شعبه، أي رعيّته، ويتصرّف به، وبأن يطيع الشّعب حاكمه، أي راعيه، ويتبعه (...) ففي النهاية لا يبحث الرّاعي إلاّ عن مصلحته ولذّته، ومصير القطيع لا يتعدّى تغذية صاحبه«.

إنّ الحجّاج في نهاية المطاف مجبرٌ على أن يلبّي مطالب الخليفة عبد الملك بن مروان، مهما كانت قاسية عليه، ومهينة له، لأنّ تلبيته لهذه الأوامر هي الكفيلة ببقائه في منصبه السّلطويّ المتميّز. وإذا كانت سيرة الحجّاج التاريخيةّ وصمة في جبين الخلافة الأمويّة، وصفحات هذه السّيرة في ليالي ألف ليلة وليلة سوداء ملطّخة بسرقة نساء المسلمين، والتّحايل عليهنّ، والاعتداء على حرّياتهنّ الشّخصيّة، كما أشير إلى ذلك. فإنّ هذه السيرة ـ ووفق المنطق الإنساني والعقلاني

ـ لا تُسوّغ للخليفة عبد الملك بن مروان إذلاله واحتقاره لواليه الحجّاج، وإجباره على أن يمشي حافياً من معرّة النعمان إلى دمشق، إرضاءً لرغبة امرأة جميلة، يشتهيها، لمجرّد أنّه سمع بجمالها الأخّاذ . فالحجّاج طلّق هند بنت النّعمان، مثلما يطلّق أيّ رجل امرأته وأعطاها مهرها، استناداً إلى نصوص تجيز له ذلك، مستمدّة من تشريعات النّكاح الإسلامي ولا تشير الحكاية بأيّة إشارة إلى أنّ الحجّاج عندما طلّق زوجته أهانها أو احتقرها، ومع ذلك أهانه سيّده عبد الملك بن مروان شرّ إهانة، إرضاءً لرغبة هذه المرأة المستبدّة.

و من مظاهر احتقار هذه المرأة لزوجها الحجّاج، كما يقول الرّاوي: إنّها» لم تزل تضحك وتلعب إلى أن قربت من بلد الخليفة فلمّا وصلت إلى البلد، رمت من يدها ديناراً على الأرض وقالت له: يا جمّال إنّه سقط منّا درهم! فنظر الحجّاج إلى الأرض فلم ير إلاّ ديناراً، فقال لها: هذا دينار، فقالت له: بل هو درهم، فقال لها: بل هو دينار، فقالت: الحمد لله الّذي عوّضنا بالدّرهم ديناراً، فناولني إيّاه فخجل الحجّاج من ذلك«. ويمكن القول، تأسيساً على سلوك عبد الملك بن مروان مع واليه الحجّاج: إنّه لا أمان لأيّ رجل في مدن ألف ليلة وليلة، مهما كان عالي القدر، في ما إذا كان متزوّجاً من امرأة جميلة، سمع بها الخليفة واشتهاها، على الرّغم من طلاق هذا الرجل لهذه المرأة في ما بعد. وعلى سبيل المثال: لقد عبّرت إحدى جواري ألف ليلة وليلة في بغداد عن خوفها على حياة حسن البصريّ، في ما إذا سمع الخليفة هرون الرشيد بجمال زوجته منار السنا وسحرها. وحذّرت سيّدتها زبيدة من أن يسمع الخليفة بجمال هذه الزوجة، قائلةً:» وحقّ نعمتك يا سيّدي إن عرف بها أمير المؤمنين قتل زوجها وأخذها منه، لأنّه لا يوجد مثلها واحدة من النساء وقد سألت عن زوجها، فقالوا إنّ زوجها رجل تاجر اسمه حسن البصري (...) وأنا أخاف يا سيّدي أن يسمع بها أمير المؤمنين فيخالف الشرع ويقتل زوجها ويتزوّج بها!«.

و إذا كان الخليفة عبد الملك بن مروان في حكاية» الحجّاج بن يوسف الثقفي مع هند بنت النعمان« قد أهان أهمّ رموز سلطته – واليه الحجاج ـ

إرضاءً لرغبة طليقته، فكيف تكون حال الرجل العادي في دولة الخلفاء، فيما إذا رغبت طليقته الجميلة في إذلاله، وبخاصّه إذا كانت هذه الطليقة الجميلة عشيقة لأحد الخلفاء أو الأمراء؟. بلا شكّ يمكن أن يُغتال، أو يُسجن أو يُنفى، فيما إذا رغبت هذه الطليقة الانتقام منه، لأنّ الرعيّة في دول خلفاء وملوك ألف ليلة وليلة مجبرة على أن تكون مملوكة لهؤلاء الخلفاء والملوك، وعاجزة عن أن تقول لهم: لا، فيما إذا اعتدوا عليها وعلى أملاكها، فـ» العلاقة بين الحاكم والمحكوم(...) ليست أكثر من علاقة بين مالك ومملوك، فالحاكم يملك رعيّته والرعيّة ملك لحاكمها، والحكم مُلك، أو نوع من أنواع الملك«.

و إذا كان الخليفة عبد الملك بن مروان قد عاقب واليه الحجّاج هذه العقوبة المهينة والمشينة، في الحكاية السابقة، على الرغم من عدم خطئه، فإنّه في حكاية» نعم ونعمة« لم يعاقبه على الرغم من خطئه الفادح باحتياله على» نعم« وسرقتها، والسفر بها إلى دمشق، وتقديمها له هدية، وكذبه عليه. وهنا يبدو موقف الخليفة طبيعيّاً، لأنّ الحجّاج وظّف انتهاكاته للحرمات في حكاية» نعم ونعمة« من أجل إرضاء الخليفة عبد الملك بن مروان، فالخليفة مسرور منه لأنّه أرسل إليه تلك المرأة الحسناء» نعم«. أمّا في حكاية» الحجّاج مع هند بنت النعمان« فإن مصلحة الخليفة تقتضي أن يذلّ واليه الحجاج لكي ترضى به الحسناء الأخرى ـ هند بنت النعمان ـ زوجاً لها. إنّ الآليّة الذهنيّة والسلوكيّة التي ينطلق منها الخلفاء ـ في ألف ليلة وليلة ـ في قراراتهم وطبيعة أحكامهم تهدف ـ بالدرجة الأولى ـ إلى تحقيق مصالحهم، وطموحاتهم، وغاياتهم، وملذّاتهم.

و يبدو أنّ الخليفة عبد الملك بن مروان في النصوص التاريخيّة، كان يعرف أنّ واليه الحجّاج ظالم وسفّاك، وكان يحتقره على الرغم من أنّه يده الطولى التي كانت تفتك بجميع معارضي نظام حكمه، وتوجّهاته السياسيّة. ولأنّه كان اليد الفاتكة بخصومه، فقد أبقاه والياً على العراق إلى حين وفاته ـ وفاة عبد الملك بن مروان ـ وها هو يكتب إليه محذّراً من استفحال ظلمه وتجاوزاته، واستيلائه على أموال الناس، وإسرافه في عقوبتهم، وسفكه لدمائهم:» أمّا بعد، فقد بلغ

أمـير المؤمنـين سَرَفُـك في الدمـاء، وتبذيـرك في الأمـوال، ولا يحتمـل أمـير المؤمنـين هاتـين الخصلتـين لأحـد مـن النـاس، وقـد حكـم عليـك أمـير المؤمنـين في الدمـاء: في الخطـأ الديّـة، وفي العَمْـد القـوَدُ، وفي الأمـوال ردّهـا إلى مواضعهـا، (...) وسـيأتيك مـن أمـير المؤمنـين أمـران: لـينٌ وشـدّة فـلا يؤنسـنّك إلاّ الطاعـة، ولا يوحشـنّك إلاّ المعصيـة، وظُـنّ بأمـير المؤمنـين كلّ شيء إلاّ احتمالـك عـلى الخطـأ، وإذا أعطـاك الظفـر عـلى قـوم فـلا تقتلـنّ جانحـاً ولا أسـيراً، وكتـب في أسـفل كتابـه:

وتطلب رضائي بالذي أنا طالبه
فإنّك مَجزِيّ بما أنت كاسبه.
إذا أنت لم تترك أموراً كرهتها
فلا لا تلمني والحوادث جَمّة

وعـلى الرغـم مـن معرفـة عبـد الملـك بـن مـروان بسـلوك واليـه الحجّـاج الدمويّ، فإنّـه كان يرفـض أن يُـذَمّ أمامـه، بـل كان يدافـع عنـه ويوبّـخ مـن يذكـره بسـوء. ويُـروى أنّ إبراهيـم بـن محمـد بـن طلحـة الـذي كان مـن خاصّـة الحجّـاج، وذا منزلـة عظيمـة عنـده، قـدم إلى عبـد الملـك بـن مـروان، وطلـب منـه أن يسـتمع إلى نصيحتـه التـي لا يجـد بُـدّاً مـن ذكرهـا، فسـمح لـه عبـد الملـك ابـن مـروان قائـلاً:» يـا بـن طلحـة، قـل نصيحتـك. فقـال: تاللـه يـا أمـير المؤمنـين، لقـد عَمَـدت إلى الحجّـاج في تغطرسـه وتَعجْرُفـه وبعـده مـن الحـقّ وقربـه مـن الباطـل، فوليّتـه الحرمـين، وهـما مـا هـما وبهـما مـا بهـما مـن المهاجريـن والأنصـار والمـوالي الأخيـار يَطؤهـم بطَغـام أهـل الشـام، ورَعَـاع لا رويّـة لهـم في إقامـة حـقّ ولا في إزاحـة باطـل، ويسـومهم الخَسْـف ويحكـم فيهـم بغـير السـنّة، بعـد الـذي كان مـن سَـفْك دمائهـم، ومـا انتُهـك مـن حُرَمِهـم (...)، فقـال لـه عبـد الملـك كذبْـتَ (...) وظـنّ بـك الحجّـاج مـا لم يجـده فيـك، وقـد يُظـنّ الخـير بغـير أهلـه، قـمْ فأنـت الـكاذب...«.

و يبـدو أنّ سـيرة الحجّـاج الدمويّـة كانـت محـلّ اسـتهجان وذمّ عنـد معظـم الفقهـاء والمؤرخـين الإسـلاميّين. ويُـروى أنّـه» قيل للشـعبيّ: أكان الحجّـاج مؤمناً؟ قال: نعـم بالطاغوت. وقـال: لـو جـاءت كلّ أمّـة بخبيثهـا، وفاسـقها، وجئنـا بالحجّـاج وحـده لزدنـاه عليهـم واللـه

أعلم». وها هو الدمّيريّ يذمّ الحجّاج قائلاً:» اللعين الحجّاج أخزاه الله وقبّحه».

وليست ملامح الحجّاج في ألف ليلة وليلة بعيدة في الغرابة والتخيّل، بل يُمكن القول: إنّها قريبة إلى حدّ ما من ملامحه التاريخيّة، كما أرّخت لها المصادر الكثيرة، وهي في هذا لا تختلف عن ملامح الخلفاء الأمويّين والعبّاسيّين من حيث نقاط الالتقاء الكثيرة بين ملامحهم التاريخيّة، وملامحهم في نصوص ألف ليلة وليلة الحكائيّة.

obeikandl.com